

من تراث الدراعة من أئمة التصنيف في الإسلام

بقلم / محمد أبو الفضل إبراهيم

(١٩٠٤م - ١٩٨١م)

تقديم : أ.د. محمد عبد العزيز المواقى^(*)

هذه " مسئلة " قدم بها الأستاذ أبو الفضل لتاريخ الطبري الذي قام بتحقيقه . وفيها نرى الامتزاج البديع بين الإحاطة المعرفية والحس الأدبي .

ولا غرو فالرجل من الدراعة الذين نتبهم " الدار " والذين ضربوا بسهم وافر في تحقيق التراث ، والتأليف الإبداعي . فخلف لنا ثروة علمية أدبية أحييت تراثنا وأخصبت حاضرتنا .

وهو من أشرف جزيرة شندويل بسوهاج ، تخرج في دار العلوم سنة ١٩٣٠ . وعمل بالتدريس ، ثم رأس القسم الأدبي بدار الكتب ، ولجنة تحقيق التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، كما أشرف على إصدار " الأغاني " في المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة .

وكان على صلة ، وثيقة بكبار المفكرين والمحققين في عصره !
محمود شاكر ، عبد السلام هارون ، السيد أحمد صقر ، على البجاوي ،

(*) أستاذ الأندب بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة .

== من أئمة التصنيف في الإسلام ==

إذ شارك هؤلاء وغيرهم في المناقشات التي كانت تدور في صالونه الأدبي كل " اثنين "

وقد خلف نحو أربعين كتابا بين محقق ومؤلف ، فحقق :

- الكامل في اللغة (٤ مجلدات)
- درة الغواص في شرح أوهام الخواص (مجلد واحد)
- شرح مقامات الحريري (في خمسة مجلدات)
- إنباه الرواة على أنباء النحاة (في أربعة مجلدات)
- الإتقان في علوم القرآن (في أربعة مجلدات)
- البرهان في علوم اللغة (في أربعة مجلدات)
- الأضداد في علوم اللغة (في مجلد)
- أمالي المرتضى (في مجلدين)
- تاريخ الطبري (أحد عشر مجلدا)
- جمهرة الأمثال للعسكري (في مجلدين)
- الفائق في غريب الحديث (في أربعة مجلدات)
- ثمرات الأوراق (مجلد)
- المحاسن والمساوي (في مجلدين)
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (مجلد)
- الصناعتين في الكتابة والشعر (مجلد)

- نزهة الألباء (مجلد)
 - مراتب النحويين (مجلد)
 - مجمع الأمثال (فى أربعة مجلدات)
 - بغية الوعاة (فى مجلدين)
 - طبقات النحويين (مجلد)
 - الوساطة بين المتنبي وخصومه (مجلد)
 - شرح نهج البلاغة (عشرين مجلدا)
 - المزهر للسيوطي (فى مجلدين)
- كما حقق :

دواوين امرئ القيس والنابغة الذبياني والبهاء زهير ٠٠ الخ

ومن مؤلفاته :

- قصص القرآن
 - قصص العرب
 - أيام العرب في الجاهلية
 - أيام العرب في الإسلام
- نسال الله الرحمة لهذا "الدرعمي" العظيم ؛ جزاء لما قدم لأمته ودينه .
وأن يبارك فى نجله أودد . خالد أبو الفضل (عميد طب الأسنان) ؛ فهو نعم الابن
البار بأبيه ، وبترائه .

من أئمة التصنيف في الإسلام

محمد بن جرير الطبري وتاريخه

بقلم / محمد أبو الفضل إبراهيم

لم يكد يطلع القرن الثالث للهجرة حتى كانت العلوم الإسلامية قد اقتربت من النضج وشارفت الكمال، فقد وضعت الأسس الثابتة لمذاهب الفقه، وألفت الكتب الصحاح في الحديث، وجمعت اللغة من أفواه الأعراب، وكثرت كتب تجاه السيرة والمغازي والفتوح، وتحددت معالم الخلاف بين نحاة الكوفة والبصرة، واستوعبت العربية طائفة من علوم الفرس، والهند، واليونان، واتسعت آفاق المعرفة عند العلماء، فكان المشتغل باللغة والنحو عالماً بالحديث ووجوه التأويل، والمحدث عارفاً بالتاريخ وصنوف الفرق والمذاهب ومراتب الرجال، والشاعر يأخذ بنصيب من اللغة والنحو والتصريف، والفقيه يحفظ الشعر والمثل، ويروى الحديث والخبر، ويشارك في صنوف الآداب.

ولم تعد جلقات الدروس، ومجالس العلماء، ومدارس العلوم وصناعة التأليف موقوفة على الكوفة والبصرة وبغداد، وقد امتدت شرقاً إلى فارس وخراسان والرى وما وراء النهر، وسارت غرباً إلى الشام ومصر وبلاد المغرب والأندلس، وأصبحت الحواضر والقرى في هذه البلاد مأهولة بالفقهاء والقراء والرواة والمحدثين والنظار، وشيوخ الأدب وأئمة اللغة والنحو، تُشدُّ إليهم الرحال ويُقصُّون من كل مكان.

===== بقلم/ محمد أبو الفضل إبراهيم =====

وفى هذه الحقبة من الزمن بزغ نجم المحدث الفقيه الجامع لأشتات العلوم،
أبى جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري. فقه العلم صبيا وهو دون
الإدراك، ورحل فى سبيله يافعا لم يبلغ مبلغ الرجال ، ولقى العديد من الرواة
والعلماء، وطالع صنوف الكتب، ولم يلبث أن أصبح إماماً وصاحب مذهب،
أملى اسمه على التاريخ، وسار ذكره مع الزمان، واقترن علمه بالثقفة والاعتبار.

كان مولده بأمل طبرستان، وقد وقع الشك فى تاريخ ولادته، قال بعضهم :
ولد آخر سنة أربع وعشرين ومائتين، وقال بعضهم : أول سنة خمس وعشرين.
وسأله أبو بكر بن كامل تلميذه ومؤرخ حياته : كيف وقع الشك فى ذلك؟ فقال :
لأن أهل بلدنا يؤرخون بالأحداث دون السنين، فأرخ مولدي بحدث كان.
واختلف المخبرون، فقال بعضهم سنة أربع، وقال آخرون : سنة خمس
وعشرين ومائتين.

وتحدث أبو جعفر عن أمره فى حادثة سنة فقال : "حفظت القرآن ولى سبع
سنين، وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين، واتبعت الحديث وأنا ابن تسع" قال:
"ورأى لى أبى فى النوم أنى بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت
معى مخلاة مملوءة حجارة، وأنا أرمى بين يديه، فقال له المعبر : إنه إن كبر
نصع فى دينه، وذب عن شريعته. فحرص أبى علي معونتي فى طلب العلم،
وأنا حينئذ صبي صغير".

وصحت الرؤيا وصدق التعبير، وملا ابن جرير الدنيا فقها وعلماء، وناضل
عن السنة وحارب الابتداع. وكان أبوه ورعا تقيا متصوفا، إلى يسار يعيش فيه،
وصحبة واسعة يملكها بطبرستان، وما أن أحس من أبى جعفر يقظة فى فؤاده،
ورجاجة فى عقله، ونزوعا إلى العلم، ورغبة فى لقاء العلماء - حتى دفعه إلى
الرحلة فى سبيل العلم حيث كان، ففارق مسقط رأسه أمل، ولم تبلغ سنه الثانية
عشرة، وكفاه مؤونة العيش ومعاناة الرزق، فكان يرسل إليه نفحته حيث حل،

فصانه بذلك من عطايا الخلفاء واستمناح الملوك والوزراء، وزهده في مناصب الدولة، وأعانه على الانقطاع إلى المدارس والرواية والتصنيف، بل إنه كان يسمى إليه نصيبه مما خلفه أبوه بعد وفاته، وظل ذلك الرزق موصولاً بحياته إلى أن مات.

وكان أول من رحل إلى الري وما جاورها من البلاد، فأخذ عن شيوخها وأكثر، ودرس الفقه في العراق على أبي مقاتل، وكتب عن أحمد بن حماد الدولابي كتاب "المبتدأ"، وأخذ عن مغازي ابن اسحاق بن سلمة بن الفضل وعليه بنى تاريخه فيما بعد. قال جعفر: "كنا نكتب عن محمد بن حميد الرازي فيخرج إلينا في الليل مرات فيسألنا عما كتبناه ويقرؤه علينا، قال: وكنا نمضي إلى أحمد بن حماد الدولابي، وكان في قرية من قرى الري، بينها وبين الري قطعة، ثم نعدو كالمجانين، حتى نصير إلى محمد بن حميد، فنلحق مجلسه.

وترامت إلى الناس أنباء أحمد بن حنبل، وتسومع ذكره في أندية العلم ومجالس العلماء، فعزم أبو جعفر على الرحلة إليه في بغداد؛ ليأخذ عنه ويروى، ولم يكد يصل إليها، حتى علم بوفاته قبل وصوله بقليل، فعدل عن الإقامة فيها، وأخذ طريقه إلى البصرة، فسمع عن بقي من شيوخها، كمحمد بن موسى الحرشي، وعماد بن موسى القزاز، ومحمد بن عبد الأعلى الصنعائي، وبشر بن معاذ، ومحمد بن بشار المعروف ببندار.

ثم رحل إلى الكوفة، وكتب فيها عن هناد بن السري، وإسماعيل بن موسى الحديث، وأخذ عن سليمان بن خالد الطلحي القراءات، ولقى فيها أبا كريب محمد بن العلاء الهمداني، وكان عالم عصره، ونسيج وحده، إلا أنه كان في خلقه جفاء وخشونة، قال أبو جعفر: "حضرت باب داره مع أصحاب الحديث، فاطلع من باب خوخة له، وأصحاب الحديث يلتمسون الحديث ويضجون، فقال: أيكم يحفظ ما كتب عنى؟ فالتفت بعضهم إلى بعض، ثم نظروا إليّ وقالوا: أنت

تحفظ ما كتبت عنه؟ فقلت: نعم. فقالوا: هذا الذى يعلم مثله، فقلت: حدثنا يوم كذا بكذا، وفى يوم كذا بكذا، قال أبو بكر بن كامل: وأخذ أبو كريب فى مسألته إلى أن عظم فى نفسه، فقال له: ادخل إلي، فدخل إليه، وعرف قدره على حدائته، ومكنه من حديثه، وكان الناس يسمعون منه، فيقال: إنه سمع من أبي كريب أكثر من مائة ألف حديث.

ثم عاد أبو جعفر إلى مدينة السلام، وفى هذه المرة أخذ فى مدارسة علوم القرآن، وانقطع إلى أحمد بن يوسف التغلبى المقرئ - زمانا، ثم جنح إلى دراسة فقه الشافعى، وكان هناك الحسن بن محمد الصباح ، وأبو سعيد الإصطخرى من أئمة الشافعية، ولم يلبث أن اتخذه مذهباً، وأفتى به سنوات.

وكان يقيم بمصر على عصره بقية من أصحاب الشافعى وحاملى مذهبه: إسماعيل بن إبراهيم المزنى، والربيع بن سليمان، ومحمد بن عبد الله بن الحكم وأخوه عبد الرحمن، فدعته نفسه إلى اللقاء بهم والرحلة إليهم، وفى طريقه إلى مصر عرج على أجناد الشام وسواحلها وثورها، وأطال أيامه فى بيروت على الخصوص، حيث لقي عباس بن الوليد البيروتى المقرئ، قضى منها ليالى بالمسجد الجامع، حتى ختم القرآن برواية الشاميين تلاوة عليه، وتابع مسيره إلى القسطنطينية حتى بلغها سنة (٢٥٣هـ) ثلاث وخمسين ومائتين.

وكان أول من لقيه بها أبو الحسن السراج المصرى، وكان أدبياً متصرفاً فى فنون الأداب، وكل من دخل القسطنطينية من أهل العلم يتلقاه ويتعرض له، فحينما لقي أبا جعفر، ساعله عن فنون من الفقه والحديث واللغة والنحو والشعر، فوجده عالماً فى كل ما سأل، أخذاً من كل علم بنصيب وافر، فسأله عن شعر الطرماح، فإذا هو يحفظه، فسئل أن يمليه ويشرح غريبه، فأملاه عند بيت المال بالجامع.

وجاءه رجل آخر أيضاً يسأله في العروض.. قال أبو جعفر: "ولم أكن نشطت له من قبل، فقلت له: عليّ قول ألا أنكلم اليوم في شيء من العروض، فإذا كان في غد عصر اليوم، فوصلت من صديق لي كتاب العروض للخليل بن أحمد، فنظرت إليه في ليلتي، فأمسيت غير عروضي، وأصبحت عروضياً".

وروى الخطيب البغدادي قصة طريفة وقعت لابن جرير في مصر، قال: جمعت الرحلة بين محمد بن جرير، ومحمد بن إسحاق بن خزيمة، ومحمد بن نصر المروزي، ومحمد هارون الروياني بمصر، فأرملوا ولم يبق عندهم ما يَقْوَتُهُمْ، وأضرَّ بهم الجوع، فاجتمعوا ليلة في منزل كانوا يأوون إليه، فانفق رأيهم على أن يستهموا ويضربوا القرعة، فمن خرجت عليه سأل لأصحابه الطعام، فخرجت القرعة على محمد بن إسحاق بن خزيمة، قال لأصحابه: أمهلوني حتى أتوضأ وأصلي صلاة الخيرة. قال: فاندفع في الصلاة فإذا هم بالشموع، وخصي من قِبَلِ والي مصر يدق الباب، ففتحوا الباب، فنزل عن دابته، فقال: أيكم محمد بن نصر؟ فقيل: هذا هو، فأخرج صرة فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه، ثم قال: أيكم محمد بن جرير؟ فقالوا هو ذا، فأخرج صرة فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه، ثم قال: أيكم محمد بن إسحاق بن خزيمة؟ فقالوا: هو ذا يصلي، فلما فرغ دفع إليه الصرة وفيها خمسون ديناراً، ثم قال: إن الأمير كان قائلاً بالأمس، فرأى في المنام خيالا قال: إن المحامد طووا كشحهم جياعا، فأنفذ إليكم هذه الصرار، وأقسم عليكم إذا نفدت فابعثوا إليّ أحداكم.

وطالت أيامه بمصر سنوات، وذهب في أثنائها إلى الشام، ثم عاد، وأخذ من فقه الشافعي عن الربيع، والمزني، وأبناء عبد الحكم، ومن فقه مالك عن تلاميذ ابن وهب، وفي مصر أيضا لقي يونس بن عبد الأعلى الصدفى، شيخ القراء بها، فأخذ عنه قراءة حمزة وورش.

بقلم/ محمد أبو الفضل إبراهيم

ثم عاوده الحنين إلى بغداد، وأحس في أن يلقي العصا ويجنح إلى الاستقرار، فعاد إليها بعد رحلة طويلة، روى فيها وكتب وشاهد، وقرأ الكثير، وصحب أعلام عصره وأخذ عنهم.

وعزم على أن ينقطع للدرس والتأليف، وأن يمتنع عن كل ما يصرفه عنهما. نقل ابن شاکر أنه " لما تقلد الخاقاني الوزارة وجه إلى أبي جعفر بمال كثير، فامتنع عن قبوله، وعرض عليه القضاء فأبى، وعرض عليه المعالم فامتنع فعاتبه أصحابه وقالوا له: لك في هذا ثواب، وتحبي سنة قد درست، وطمعوا في قبوله المعالم، وباكروا ليركب معهم لقبول ذلك، فانتهرهم، وقال: قد كنت أظن لو رغبت ذلك لناهضتموني عنه. ولامهم".

ونقل أيضا "أن بعض أصدقائه قال له: أنتشط لتأديب بعض ولد الوزير أبي الحسن عبيد الله بن يحيى ابن خاقان؟ قال له: نعم، فمضى الرجل وأحكم له أمره، وعاد إليه فأوصله إلى الوزير بعد أن أعاره مايلبسه، فلما رآه عبيد الله قربه ورفع مجلسه، وأجرى عليه عشرة دنانير في الشهر، واشترط عليه أن ذلك لا يعوقه عن أوقات طلب العلم ومدارسته، وأداء الصلاة في مواعيدها، والطعام في وقته، ثم طلب إسلامه رزق شهر ليصلح به حاله، ففعل به ذلك، وأدخله حجرة التأديب، وخرج إليه الصبي، فلما جلس بين يديه كتب، فأخذ الخادم اللوح ودخل بها مستبشراً، فلم تبق جارية إلا أن أهدت إليه صينية فيها دراهم ودنانير، فرد الجميع وقال: قد شورت على شيء. فعرف الجوارى الوزير بذلك، فدخل إليه وقال: يا أبا جعفر، سررت أمهات الأولاد في ولدهن فبررنك، فغممتهن بردك ذلك. فقال له: لا أريد غير ما وافقتني عليه.

ثم ابتنى لنفسه دار برحبة يعقوب ببغداد، وزَّعَ فيها نفسه بين العبادة والقراءة والإملاء والتصنيف وعاش بها رضى النفس، مرموق المحل، مهيباً من الخلفاء والولاة، رفيع المنزلة والمكانة، إلى أن مات يوم السبت ليومين بقيا من شوال

سنة عشر وثلاثمائة، ودفن يوم الأحد بالفداء، في داره. قال الخطيب: "واجتمع على جنازته من لا يحصى عددهم إلا الله، وصلى على قبره عدة شهور ليلاً ونهاراً، ورثاه خلق كثير من أهل الدين والأدب".

وقد جال ابن جرير في نواحي كل فن، وضرب فيها جميعاً بسهم، حتى أصبح إمام عصره غير مدافع، قال عبد العزيز الطبري في شأنه: "كان كالقارئ الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدث الذي لا يعرف إلا الحديث، وكالفقيه الذي لا يعرف إلا الفقه، وكالحنوي الذي لا يعرف إلا النحو، وكالمحاسب الذي لا يعرف إلا الحساب، وكان عالماً بالعبادات، جامعاً للعلوم، وإذا جمعت بين كتبه وكتب غيره وجدت لكتبه فضلاً على غيرها".

وكان أيضاً شاعراً، ذكره القفطي في كتاب "المحمدين من الشعراء"، وقال: "كان له رحمه الله شعر فوق شعر العلماء"، وأورد له:

إذا أعسرت لم يعلم رفيقي	وأستغنى فيستغنى صديقي
حيائي حافظ لي ماء وجهي	ورفقي في مرافقتي رفيقي
ولو أني سمحت بماء وجهي	لكننت إلى الغنى سهل الطريق

وقوله:

خلفان لا أرضى طريقهما	بطر الغنى، ومذلة الفقر
فإذا غنيت فلا تكن بطرا	وإذا افتقرت فته على الدهر

وقد اختار في تاريخه من عيون الشعر، ومنخول الخطب والرسائل والوصايا - ما يشير إلى طول باعه في هذا الشأن، قال أبو عمر الزاهد: "سمعت ثعلباً يقول: "قرأ على أبو جعفر شعر الشعراء قبل أن يكثر الناس".

وقال فى حفه: " إنه من حذاق الكوفيين". قال أبو عمر: وكان أبو العباس قليل الشهادة للناس.

وكان حسن الرأى جميل الطريقة، لا يخلى ليلة من تلاوة القرآن، ويذهب فى جل مذهبه إلى ما عليه الجماعة من السلف، جاريا على طريق أهل السنة، لم يقصد فيها إلى حاجة من سلطان، أو تزلفا إلى عظيم. دعاه الخليفة المكتفى لتأليف كتاب فى الوقف يجتمع عليه أقوال العلماء، ويسلم من الخلاف، فلما أتمه وأملاه أعجب الخليفة، وأمر له بجائزة سنوية فردها، فراجع فى ذلك وقيل له: من وصل إلى مقام الخليفة لم يحسن أن ينصرف إلا بجائزة أو قضاء حاجة، فقال: أما قضاء الحاجة فأنا أسأل أمير المؤمنين أن يحمل أصحاب الشرط أن يمنعوا السؤال من دخول المقصورة يوم الجمعة حتى تنتضى الخطبة.

وقد بلغ الغاية فى شرف النفس، وكمال العفة، ونظافة الملبس والأعضاء، وحلاوة المعاشرة، وحسن التقفد لإخوانه، وجمال الرعاية لهم، رقيق حواشى الكلام مع دعابة وظرف، ورقة ولطف، وله فى كل ذلك قصص وأخبار، أفردا أبو بكر بن كامل فى كتابه، وكذلك فعل عبد العزيز بن محمد الطبرى، وعن هذين الكتابين نقل ياقوت معظم ما أورد فى كتابه عن محمد بن جرير.

وذكر القفطى فى كتابه "أنباء الرواة" أنه وضع فى سيرة الطبرى كتابا أسماه "التحرير فى أخبار محمد بن جرير" وصفه بأنه "كتاب ممتع"، وضاع فيما ضاع من كتبه.

وكتابه "المسمى تاريخ الرسل والملوك"، أو "تاريخ الأمم والملوك" يعد أوفى عمل تاريخى بين مصنفات العرب، أقامه على منهج مرسوم، وساقه فى طريق استقرائى شامل، بلغت فيه الرواية مبلغها من الثقة والأمان والإتقان. أكمل ما

قام به المؤرخون قبله، كاليقوبى، والبلاذرى، والواقدى، وابن سعد، وميد السبيل لمن جاء بعده كالمسعودي، وابن مسكويه، وابن الأثير، وابن خلدون.

وقد كان التاريخ عند العرب فى الجاهلية أخبارا متفرقة تتناقلها الشفاه، وروايات متناثرة تدور حول الأشعار والأمثال والأيام، وأساطير تكسوها المبالغة ويحوطها التهويل، عدا نقوشا كتبت بالخط المسند على حوائط المعابد والأديرة وأعمدة الحصون والقصور فى الحيرة واليمن. ثم كانت بعثة محمد عليه السلام، ومضى عهده وعهد الخلفاء الراشدين من بعده، وإذا المسلمون يخفون لتدوين أخباره عليه السلام، ويروون أنباء مولده ومبعثه وهجرته ومغازيه، فكان من تدوين تلك السيرة النبوية الأولى فى تاريخ الإسلام، على أنها لم تغد فى ذلك الحين أن تكون نوعا من رواية الحديث. وكان أول من وضع فى ذلك كتابا عروة بين الزبير بن العوام، ثم تلاه أبان بن عثمان بن عفان، إلى أن بلغ فن السيرة أوجه فى كتاب ابن إسحاق.

ثم خرج المسلمون للغزو والجهاد، فهزوا عروش كسرى وقىصر، وفرضوا دعائم الملك فى بلاد الفرس والشام ومصر والروم، ودخلوا البلاد فاتحين. ثم نبض عرق العصبية والقبلية، وشاعت أخبار الأمم القديمة، وتاريخ الديانات عند الأمم الأخرى، كل هذا وذلك دعا إلى إضافة مادة تاريخية جديدة، فالعلماء حاولوا أن يفهموا إشارات الكتاب الكريم إلى تلك الأمم، والخلفاء رغبوا فى معرفة أخبار الملوك من الأمم قبلهم، كان يفعل ذلك معاوية، وعبد الملك بن مروان، وأبو العباس السفاح، وأبو جعفر المنصور، ومست الحاجة إلى معرفة ما فتح من البلاد صلحا، وما فتح منها قوة، ليقيموا الجزية والخراج على أساس ما رسمه الإسلام فى ذلك من تشريع.

وأخذت الرواية التاريخية تتخذ لونا جديدا، أطلق عليها اسم الأخبار، ودعى من يرويها بالإخبارى، كما أطلقوا على من يروى الحديث اسم المحدث،

وظهرت فى ذلك مؤلفات، فصنف محمد بن السائب الكلبي كتابا فى الأنساب، وعوانة بن الحكم فى أخبار بنى أمية، وأبو مخنف فى أخبار الردة والجمل وصفين، وسيف فى أخبار الفتوح، وابن هشام فى ملوك حمير... وما أن انقضى القرن الثانى حتى أخذت المادة التاريخية تزيد تبعا لتطور الحياة العربية، واستقرت دواوين الإنشاء والجند والبرد، وتنوعت العهود والوثائق والمراسلات، ومست الحاجة إلى معرفة المواليد والوفيات، ومدد ولايات الخلفاء والولاة والقضاة والقراء وأمراء المواسم فى الحج، ثم ظهرت الكتب المترجمة عن الفرس واليونان والسريان، وكثرت الرحلة بين البلاد، وتعددت المشاهد، واطلع العرب على ما لم يكونوا رأوه من عجائب البلاد، وحضارات الأمم، عدا ما كان من اتساع الفتوح، وكثرة الأحداث، فوجد العلماء للتاريخ منابع رافده، ومناهل متنوعة، ومصادر كثيرة، وأحسوا أن لعلم التاريخ أثرا فى بناء الأمم، وفهم الثقافات، وإرساء العلوم فى قواعد ثابتة، ولم ير الأفاضل منهم بأسا فى أن يضعوا أسفارا فى التاريخ، فعل ذلك الواقدي فى كتب الفتوح، والبلاذرى فى كتابيه البلدان، وأنساب الاشراف، وابن قتيبة فى المعارف، وابن حبيب فى المجبر، والدينورى فى الأخبار الطوال، إلى أن انتهى الأمر إلى الإمام محمد ابن جرير الطبرى، فوضع فيه كتابة العتيد.

ولا يعلم على وجه التحديد التاريخ الذى بدأ فيه أبو جعفر إملاء هذا الكتاب، ويظهر أنه ألفه بعد كتاب التفسير، روى الخطيب أن أبا جعفر الطبرى قال لأصحابه: أنتشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ قال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: إن هذا مما يفنى الاعمار قبل تمامه، فاختصره فى نحو ثلاثة آلاف ورقة، ثم قال: أنتشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم

قدره؟ فذكر نحوًا مما ذكره في التفسير، فأجابوه بمثل ذلك، فقال: إنا لله، ماتت لهم. فاختصره في نحو مما اختصر التفسير.

وجاء في تاريخه: " قيل أقوال في ذلك قد حكيها منها جملا في كتابنا المسمى "جامع البيان عن تأويل أى القرآن".

وذكر ياقوت عن أبى بكر بن خالويه قال: قال لى أبو بكر محمد بن إسحاق- يعنى ابن خزيمة - : بلغني أنك كتبت التفسير عن محمد بن جرير؟ قلت: نعم، كتبنا التفسير عنه إملاء، قال: كله، قلت: نعم، قال فى أى سنة؟ قلت: سنة ثلاث وثمانين إلى سنة وتسعين.

وإذن يكون قد أُملى التاريخ بعد سنة (٢٩٠هـ) تسعين ومائتين .
أما الانتهاء من هذا التاريخ فقد ذكر ياقوت أنه فرغ من تصنيفه وعرضه على المستملين له: "فى يوم الأربعاء لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثمائة، وقطعه على آخر سنة اثنتين وثلاثمائة".

بدأ أبو جعفر تاريخه بذكر الدلالة على حدوث الزمان، وأن أول ما خلق بعد ذلك القلم، وما بعد ذلك شيئاً فشيئاً، على ما وردت بذلك الآثار، ثم ذكر آدم، وما كان بعده من أخبار الأنبياء والرسل، على ترتيب ذكرهم فى التوراة، متعرضاً للحوادث التى وقعت فى زمانهم، مفسراً ما ورد فى القرآن الكريم بشأنهم، معرجاً على أخبار الملوك الذين عاصروهم، وملوك الفرس على الخصوص، مع ذكر الأمم التى جاءت بعد الأنبياء حتى مبعث الرسول عليه السلام.

أما القسم الإسلامى فقد رتبّه على الحوادث من عام الهجرة، حتى سنة ثلاثمائة واثنين، وذكر فى كل سنة ما وقع فيها من الأحداث المذكورة، والأيام

المشهورة، وإذا كانت أخبار الحوادث طويلة جزأها على حسب السنين، أو يشير إليها بالإجمال، ثم يذكرها في الموضع الملائم.

وترجع قيمة هذا الكتاب إلى أنه قد استطاع أن يجمع بين دفتية جميع المواد المودعة في كتب الحديث والتفسير واللغة والأدب والسير والمغازي وتاريخ الأحداث والرجال، ونصوص الشعر والخطب والعهود، ونسق بينها تنسيقاً مناسباً، وعرضها عرضاً رائعاً رائعاً، ناسباً كل رواية إلى صاحبها، وكل رأى إلى قائله، كما أنه أودع هذا الكتاب فصولاً صالحة ونتاجاً متنوعة من متون الكتب التي أتت عليها عوادي الأيام، وأورد من أقوال العلماء ما لا نجده إلا في هذا الكتاب.

ومصادر الطبرى في هذا التاريخ هي كل ما سبقه من المواد التي عرفها العرب من قبله، وأخذ من كل متخصص في فنه، أخذ التفسير عن مجاهد وعكرمة وغيرهما ممن نقل عن ابن عباس، ونقل السيرة عن أبان بن عثمان وعروة بن الزبير وشرحبيل بن سعد وموسى بن عقبة وابن إسحاق، وروى أخبار الردة والفتوح عن سيف بن عمر الأسدي، وحوادث يومى الجمل وصفين عن أبي مخنف والمدائني، وتاريخ الأمويين عن عوانة بن الحكم، وأخبار العباسيين من كتب أحمد بن أبي خيثمة، كما أخذ أخبار العرب قبل الإسلام من عبيد بن شربة الجهمي، ومحمد بن كعب القرظي ووهب بن منيه، وأخبار الفرس من الترجمات العربية من كتب الفرس، ولا سيما كتب المقفع وابن الكلبي، وغير هذا مما تراه في مباحث المواد في تاريخ الطبرى المستفيضة التي نشرها الدكتور جواد على تباعاً في مجلة المجمع العلمي العراقي ببغداد.

